

## قصة بقاء قيلة السابينة

# أهدية من نار

تهرا السفلى ! ...

تهراً سفلى بيتي ، يا ابي ، تساقطت فوقى رماله ..

ثقب ! ...

ثقب سفلى بيتي ، يا ابي .

ان الثوب المثقوب يندرنا ابدا بالنهاية .

ثقب سفلى بيتي ... ثقبته الامطار .. فتحت شقوقا في قرميده ، سابقت الي من خلال فجواته « تقاطرت » « انداقت » ساحت فسي بيتي .

اركان بيتي ترتجف ارتجافا بلا توقف ، تتناوح بين شقوقه الرياح .. تتناوح .. تبكي .. قطي سكن .. كلبى قاء صوته عند اقدمي . المياه ، يا ابي ، تضرب السقف ، ولضربها رجح قوي ، ولضربها ترتجف الجدران ، ولضربها يسكن قطي ، ولضربها يدوخ كلبى عنسد اقدمي ، ولضربها الضرب كل شيء ، ولضربها اصرخ ...

ان صرخاتنا اجسام تريد ان تجد مكانا في الارض .

ويكثر النواح والبكاء .. ويكثر الزفير والضرب ... ويكثر الضرب والصراخ ، وعلى الطريق اسمع صوت بصقة طويلة « تفو !! »

ثقب سفلى بيتي ، يا ابي ، ثقبته الامطار .. فتحت شقوقا كبيرة في قرميده ، الامطار تظهر ، تندلق ، تسبح على الجدران ، تتعقبني .. انا ايضا كنت تعقبت ، كنت تعقبك ، يا ابي ، لاني دوما اجهلك ، اجهل نفسي ايضا .. فقط .. انتظر كاهي ، انفرج عليها ، وهي تخدمك ... تجلس عند اقدمك كقطعة اليقة تلمع احدثك دوما .

في ذلك الصباح - كان حقا صباح مخاض - تعقبك ..

قبل ان تخرج لمعت امني حذاءك .. كانت تلمع لك دوما ، حتى في الايام التي تنصب فيها ، ولمت لك الحذاء ، وساعدتك وانت تلبس المعطف ، وايضا شيعتك حتى الباب . وكان ان جاء دوري .

انت تسير ... تسير ، يا ابي .. وانا ورايك ..

انت تسرع ، وتسرع ، تنظر الى ساعتك وانا ورايك ، تمشي ، تسرع ، تتحدث ، وتتحدث وحده ، تساءلت .. بل انحل سؤالي ،

لان مشكلة اضراب اخي عن الدروس ليست من المشاكل التي تحيرك ، هانت تعرف جيدا انه يخاف ، وانه يريد دوما ما يريدون ، ولكنك

تتحدث ، تتحدث وتسرع ، انت يا ابي تسير ، تسير بلا توقف . وتمر بجانبك سيارة فخمة ، اشرت اليها ، ظننتك ستركبها وساخسر

صفقة تبعك ، ولكنك - فقط - حيت صاحبها ، وتجاهلك هذا ، واهتزت ... ماذا فعلت ، يا ابي ؟

هل نسيت ان امني في ذلك الصباح كانت قد لمعت حذاءك ؟

وتسرع .. تسرع وانا ورايك ، تسرع وانا خلفك .. ويمر بجانبك بائع الجرائد ، ويحييك .. رايته يحييك ولم تهتم به ، يا ابي ..

رايته كذلك يعطيك الجريدة ، يعطيك الجريدة وانت ساكت .. ودوما تسرع . وغبت عني قليلا .. خلفتني .. خلفتني ورايك .. خلفتني انظر

الى بائع الجرائد .. انه يبتسم .. يبتسم .. ونظرت الى حذائه .. كان حذاءك مثقوبا ، واصبعه الصغيرة تفرج على الناس منها ، وتساءلت

في حيرة :

«من يساعذك تلك الاصبع على الدخول ؟ من ، من يلعب حذاءها ؟»

وعدت اسرع ، اجري ، الهت ورايك . ورايتك تدخل المقهى ، ورايتهم يحيونك . فقط كنت تنظر .. وشغلت بقهوتك ، وشغلت بك ،

انك اول رجل تشغلني .. انت يا ابي .

وتفرج ، وشمسي .. واتعب ورايك .. ويحيونك يا ابي وتجاهلهم وتحييهم ويقتلونك . وتصل الى ، الى لست ادري .. وخفت .. خفت صراحة ، لانك علمتني الخوف ، ولاني كنت دوما اسالك وتسكت ...

تصمت كانك تموت ابدا .

واراك تنحني .. تنحني انت - انت يا ابي - امام فار يلبس حذاء اجمل من حذاءك قلت اجمل .. لا .. ربما اجمل .. ربما .. ربما لست ادري ..

واراك تغلع المعطف .. ترميه ، ونشمي منحنيا تحت انقال اكياس الاسمنت .. وارتميت .. يا ابي ، يا انت ، ، نرفع اكياس الاسمنت؟

وتنحني .. وتنحني اكثر ، ترفع الصخر ، ، والعرق منك يقطر .. وتنحني اكثر .. ومع ذلك تصحك ، وتنحني ، وتحني ، . واراك فوق

السطوح .. تنظف السطوح .. تدفع المياه .. تدفع المياه لتندفق من الميازيب . وتصورت قدمك بك تزل .. تصورك ، يا ابي ، على الارض ،

على الارض تموت ، تموت وانا ابقى للبرد ، ويشيعونك بكلماتهم الضخمة « كان مخلصا ... » ويضيفون اسمك الى قائمة الشهداء .

وتموت ، ، يا مامور ، يا ابي .

ماذا يفعل هذا ؟

ماذا تفعل ، يا ابي ؟

انك تعطي .. وتعطي وانت ساكت ايضا .. ربما تخاف كمسا علمتني واخي .. واكتشفت انك تموت فعلا .. انك ميت ، ، انك تعطي ،

تستنفذ نفسك ، وتسكت ، تسكت ايضا ، ومن يريد ان يعيش ، من يريد الإبقاء على ذاته يجب ان يتكلم .. ان يصرخ ايضا .

لقد اكتشفت ، يا ابي يومها ، انك اعطيني اشياء لم اطلبها منك .. كنت تخفي عني انك ترفع على ظهرك الاسمنت ، وتصمت ،

تصمت كثيرا امامي لتجملني ارضى بما انت رضيت ، ولمعرفتك انني صعبة المراس ، فانت لا تتركني الع حذاءك الذي اكتشفت في

ذلك اليوم ايضا انه يشبه حذاء بائع الجرائد . اكتشفت انه كثير الشقوق ، لكنه لماع ، لان امني كانت لمعته قبل خروجك . وايضا ، دون

اخي ، كنت تشتري لي الاحذية اللماعة .

ماذا فعلت ، يا ابي ؟

كنت تعطي .. وتعطي .. وتسييت ان كثرة العطاء تولد رغبة الافتكال ..

جدران بيتي تقف فيها الفران ! تقف فيها مستقيمه ، ولكن ستفرقها الامطار .. ستذهب بها بعيدا .. ستأخذها بعيدا الى بيت

آخر لتنحني هناك .. ستذهب بها .. ستأخذها بعيدا .. بعيدا .. بعيدا .

جدران بيتي ترتجف .. ترتجف بلا توقف .. اركان بيتي تحست الامطار صافرة .. اركان بيتي تحت الامطار قصيرة .. الامطار تندفع

جسمي لا يحس بالخوف .. الخوف ينفصل عن روحي .. الصرير ينبعث من جميع خلايا نفسي ... ينبعث هادرا .. الضحكات الهستيرية

تنطلق من اعماقي .. التيار يلتهب من حولي ويلهيني . الثقب تتسع اكثر .. الجدران تبعد عن بعضها اكثر .. الجدران تبسم .. تصحك ..

بغزارة .. بقوة .. الامطار تهلكني ، تضربني على رأسي ، على رجلي ، ، تتداعى .. تتمايل ، وانا وحدي في ذلك الهول .

قال لي البناء قبل ان يسقط البيت ، وبعد ان لع وجهه بصحكة كبيرة ..

- استطيع ان اسد هذه الثقوب .

- تفعل ماذا ؟

- اقف بجانبك ..

- انت ، ايها الغار ؟

- نعم

- ما مدى وجودك ؟

- انه يمتد مع المد ...

- جميل ... ويجف بعد حدوث الجزر اليس كذلك ؟

— أن المدّ فوق كل شيء ..

المد ! . المد ! . المد يظيني يا أبي .. بيتي يسقط .. بيتي ينهار .. جدرانها تنام فوق بعضها .. تتمسح بالأرض .. تعانق المياه . والثوب أبداً ينذرنا بالنهاية .

الجدران تعانق المياه ، وأنا وحدي في ذلك الهول ، حدنسي البناء كثيراً .. يريد أن يعطيني .. يعطيني مثلك ، يا أبي .. والعطاء الرخيص ، يولد ، عندنا نحن الذين نأخذ ، كره العطاء .. ورغبة الافتكاك ..

— أنت أيها الفار ؟

— كم من فار داس عملاقا ..

— أو .. ما كل دوس مطلقا ..

— ولا كل شيء نراه صالحا ، هو صالح في واقعه ..

— الفرق بيننا ، هو أنني أمشي مستعينة بنفسي ، وانسنت مسننين بأسياك .. تمشي بأسياك ...

سقط ! . سقط البيت يا أبي ! . والمياه تجرجر قواعده ... تكسر سواريه وأنا ارتعش باستمرار .. المكان كله يفرق في الأرض ، ويفرق معه أشياء كثيرة .. غلب اللعاب الفارغة الصدئة جدا التي لها وقع مفزع وصورة مفزعة لبيت راحل . لم يكن ثمة شيء يوحي بالقوة . لم يكن ثمة شيء يوحي بالسكينة غير الفئران ، ومتفرج واحد .. وأنا المصلوبة ..

القوة كل يوم تصلب ضعيفا . والضغفاء ينفخون في أبواق من رماد .

ان تاريخ الصلب وجد بعد ان كثرت أبواق الرماد ...

الماء يسبح .. يسبح بقوة .. غلب اللعاب الفارغة تتعشر ... الفئران تتراقص .. تتراقص سعيدة ..

انه لحبيل أن نصق في وجوه الناس ، السعداء البسطاء .

الماء الهائج يفر كل شيء ! . يحطم كل شيء .. ابتسمت للهائج .. للماء .. تذكرتك ، وانت تبسّم فوق السطوح من بعيد لصاحب الحذاء الجميل ..

تصورتك تموت ، وانت ميت .. فكل ما فعلته في حياتك أنك صامت .. وابتسمت ..

ابتسمت عكس ابتسامتك ،

الماء الهائج يصلبني ! . يداي تتحركان .. تفاومان .. ان الماء يجهل ان بعضي اسمنت وبعضي الآخر صخر ، والبقية عرق .. عرقك أنت ، يا أبي .

الموج يقذفني وأنا مصلوبة .. يجرفني فاهبط ، وارتفع وأف

وأنا مصلوبة .. يدور بي ويدورني ، وأنا مصلوبة .. وأقاوم وأسكن ، وأهدأ ، وأستسلم ، وأنا مصلوبة . وحيث أنا مصلوبة أكون موجودة ..

وحيث أنا موجودة أكون قد وجدت .. وحيث قد وجدت ادرك حدودي . تراكم الثلج في هذا المساء ، يا أبي ! . سقط كثيرا .. ورافني

في مكاني البعيد الغريب ، المتصل ، المنفصل ، في خراب بيتي ان انظر الى رجلتي الحافيتين أمامي رأيت ذلك المتفرج .. نفس المتفرج الذي رأته في الصباح يقف أمامي بجذائه الجميل .. رأته أيضا

في المساء ،، نسيت أن أقول لك : ان هذا المتفرج قد احتفظ ببعصته بين شفاهه . وعندما توقف أمامي خلع حذاءه ،،

— أنتي آسفة ، لان وضعي هنا يجبرك على خلع حذاءك ..

— لا تخجلي ..

— انما خجلي من وقتك ، لانك ستعود بصفقة المعبون .

— كلنا نقول هكذا ..

— هل أنت مسرور ؟

— أجل ! . لان المياه لم تغذلك .. كنت رائحة .. جد رائحة ..

انك تشبهيني « افروديت » .

— دع هذه المجاملات لغيري ..

— كنت رياضية .. وكنت امرأة أيضا ..

— اشكرك للاولى .. وآسف للثانية ..

— هاتي يدك

— لا أستطيع ، فبعد قليل سيجرني التيار من جديد ..

— هالك حذاء أذن ..

— أوه ! . أضجرتني .. دعه لك .. تركت أحذية كثيرة فسي بيت والدي ..

و .. وتركته .. وورائي فذف الكلب بصقته ..

ومن بعيد — عبر ميدان المحطة — أرى مكاني يخفقه الدمار .. لست أدري ماذا يحس المرء عندما يرى أمامه الدمار ، وعندما يشمر

أنهم يجدون في تمليع الدمار أيضا ..

هل كان الدمار يلوي لسانك ، يا أبي ؟

ان الدمار هو هجاء كل شيء ، يعني الميل نحو كل شيء رغم الظروف والأوضاع ، وكذلك سار كل شيء نحو الهجاء ..

عرفتك في ذلك الصباح ، يا أبي . وكان حقا صباح مخاض حيث نمت الولادة في الاسمنت .. كنت تلمع وجهك .. تحمل الصخر على

ظهرك .. رأيت أنفك أنفي يفرقه الاسمنت ، رأيتك ترتعش .. تنحني ، تحيي وتبسم أيضا ..

وكرهتك .. خرجت أبحت لنفسني عن بيت .. وجدت البيت ..

ثقبته المياه ، لاني أرفض التلميع .. أرفض الاخذ .. أرفض العطاء ..

وتقب السفف .. ثقبته الامطار ، والرياح تتناوح من خلال شقوقه ..

والاركان ترتجف .. والقفز سكن .. والكلب قاء صوته عند اقدمي ..

والثوب المثقوب ينذرنا أبداً بالنهاية ...

والبناء الفار يدوس العملاق ،، والكلب انار مال الى الكفسة الراجعة .. وشيعني بصقته .. وحرمته « افروديت » والامطار

تريد .. وأنا مصلوبة على عمودها كالعلم المنكس .. وعلى رأسي أسير .. وعلى حافة العلم برأسي أسير ، وكل ما أمامي دمار ، وهي حدود

الدمار أتعش .. أنتحرك مع اتجاهات الرياح البغيضة ، عيناى تثقيبان الفضاء حيث الدمار وما بعده ، كل حركة صعبة .. صعبة جدا ..

الساحة أمامي كبيرة ومملوءة بأحرف الهجاء .. القبضة بالحفاء لا تفارقتي وأنا مصلوبة وعلى العلم برأسي أسير ، والعدم يمتد أكثر مسن

اللزوم ، أكياس الاسمنت فوق ظهرك ، يا أبي ، تظفك .. تحجبك عني .. تبعك أميالا عني .. تبعك .. تبعك .. وشعرت بوحشة

والاكياس نواريك .. وحشة تحيط بي .. تلفني .. وحشة في قلبي وفي الجو أيضا .

ما أبدو الوحشة ! . ما أبدوها حقا ، يا من وأرتك الاكياس .. انها الواقع العاري بلا تلميع .. انها أنت .. أنت ، يا أبي .. وعرقك

يفضل وجهك .. انها انا .. انا التي تجري .. انا التي تفر .. انهم يطاردونني ... يطاردونني ، يا أبي ، وصرخي يسبقني .. لن تحل

— يا أبي — صرخة وراءها فم مفتوح .

اني أجري .. الهت .. أمزق الطريق تحتي .. وهم يجدون في الجري ورأني .. يمدون الي أيديا فقرة .. جد فقرة .. يقولون ..

يقولون كلمات كبيرة أيضا ..

« .. يجب ان نسكها .. نقطع بعض الشيء من رجليهـا المرفطحين .. يجب ان نبني السدود .. ان نقيم الاسوار .. ان نذهب

الى والدها » .

الوحشة هي أنت انا التي تفر .. انا التي تجري .. تجسري وتصرخ ..

« .. اذهبوا اليه .. اذهبوا الى أبي .. خذوه يلصمكم الاحذية .. خذوه ليكون شهيدا من شهدائكم .. أما انا . أنا أرفض ، أرفض

زواياكم الضيقة ، أرفض كلماتكم الكبيرة ،، أرفض .. ان الرفض ولید ولادتي .. أرفض أيضا هداياكم الرخيصة .. أرفض عطاءكم

البخس » .

مللته .. مللته .. صدقوني . مللته ، لانه اخذ بدون تعب ، والاخذ بدون تعب ضربة من فوق ..

اذهبوا اليه .. اسرعوا اليه .. انه يحسن التلميع .. خذوه .. لن يرفض .. لن يقول « كلا » لن تسمعوا منه « لا » .

انه لا يعرف ما معنى « لا » .

اما انا ! . انا اكره الانتصار .. بدون حق .

نتيلة التباينية